وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الأمانة العامة للأوقاف

مجلة البيان

دور العلماء والمثقفين
في محور استراتيجية المواجهة

الشيخ: أ. د. ناصر العمر

الإعمال الخيرية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين، أما بعد:

فإنه لا يخفى على أحد ما وصلت إليه الأمة في هذا الزمان من ضعف وهوان أغرى أعداءها فتكالبوا عليها تكالب الأكلة على قصعتها، مصداقاً لما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث ثوبان حيث قال عليه السلام: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت)[1].

هذا التداعي الواقع في عالم اليوم لم يقتصر على الجانب العسكري بمحاولات اختراق بلاد المسلمين وإخضاعها بقوة السلاح، بل إنه يأخذ شكلاً أشد خطورة وأطول مفعولاً وأعظم ضرراً هو التهجم والتطاول على دين الأمة ومقدساتها، فتارة بالتشكيك في عقائد وشرائع المسلمين، وتارة بالطعن فيمن نقل لنا هذا الدين من الصحابة والتابعين، ثم أخيراً يبلغ الطعن مداه بالطعن في القرآن الكريم وفي سيد المرسلين صلوات ربي وسلامه عليه إلى يوم الدين.

إن تداعي الجيوش الغازية على الأمة لم ينقطع عبر التاريخ، وقدكانت الحرب سجالاً بين الأمة وأعدائها، والغلبة في أغلب الأحايين

(1) رواه أحمد و أبو داود ، و صححه الألباني بمجموع الطريقين عن ثوبان.

من نصيب جند الله الموحدين، وعساكر الإيمان المنصورين، وربما نزلت ببعض الأمة هزائم عسكرية ولكنها كانت دائماً على ثقة بموعود ربها، وأن الدائرة ستدور بلاشك على عدوها، وكانت دوماً وأبداً مستعلية بدينها وإيمانها لا ترى في أعدائها ـ وإن انتصروا في أرض المعركة ـ إلا علوجاً ليس معهم شيء ينقصها أو تحتاج إليه في دينها أو دنياها، وأن ما معها من كتاب ربها وسنة نبيها هو الحق المبين الذي تفوق به كل العالمين.

فلا تعجب إذاً إذا علمت أن أعظم اجتياح للأمة الإسلامية نجم عنه تأثر المحتل التتري بديانة المسلمين فأسلم وادعى الإسلام منهم خلق.

الخطر الحقيقي الذي واجهته الأمة والذي شكل تهديداً فعلياً لوجودها وكيانها ومن ثم كان تمهيداً لكل ما حاق بها من هزائم لاحقة إلى يومنا هذا، جاء متأخراً ولعل بوداره كانت مصاحبة للحملة الفرنسية على مصر، ذلك أن الهزيمة العسكرية أمام الفرنسيين كانت مقترنة أيضاً بهزيمة أخرى نفسية عند طوائف كثيرة من المسلمين ـ لا سيما من لهم تأثير على مصائر الأمة من حكام وأمراء ومتنفذين ـ فللمرة الأولى تنظر فئام من المسلمين إلى عدوهم نظرة انبهار وإكبار، وللمرة الأولى بدأ يدب الشعور في نفوس ضعاف الإيمان بأن للعدو عليهم فضلاً بما يملكه من وسائل وأدوات ومخترعات قصروا عن تحصيلها نتيجة أزمان من الجمود الفكري الذي خيم على حياتهم .

ونتيجة لهذه الهزيمة النفسية كان من السهل على الكثير من أبناء المسلمين أن يقعوا ضحايا للتداعي الآخر الذي أتى به الأعداء وتناول

ثوابت الأمة ومقدساتها، فوافقت الشبهات التي بثها أعداء الدين من الكفار المتغلبين قلوباً خاوية من اليقين، فمادت بها وتمكنت منها حتى انحرف نفر من المسلمين عن دينهم فلم يبق لهم منه إلا اسمه، ثم تحولوا هم كذلك إلى معاول بيد أعداء الأمة يهدمون بها ثوابتها من الداخل .

إنه من الواضح بمكان أن خطورة تداعي الجيوش لا تكاد تقارن بخطورة تداعي المتطاولين المتجرئين، فمن يقع ضحية الأول وهو ثابت على دينه يكون قد فاز بالشهادة فهو في أعلى عليين مع النبيين والصديقين والصالحين، أما من كان ضحية الثاني فإنه يكون قد خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

فاستشعاراً لهذه المخاطر العظام والتحديات الجسام التي تواجه الأمة تداعى الغيورون عليها من أبنائها تداعياً من نوع آخر، يريدون أن يبحثوا لها عن مخرج مما هي فيه من ضعف وهوان لتعود لتستأنف رسالتها التي أناطها الله عز وجل بها من هداية العباد بإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[1] .

ولا شك أن أول خطوة في الطريق نحو حل أي مشكلة تواجه الفرد أو المجتمع أن يشعر بوجود المشكلة، ولذا فهذا التداعي من الغيورين

(1) من خطبة ربعي بن عامر رضي الله عنه لرستم قائد الفرس في القادسية، البداية و النهاية لابن كثير ج ٧ / ٤٦.

الذي يدفعهم للبحث عن المخرج هو أول علامات الصحة والحياة في هذه الأمة التي كان يؤمل أعداؤها أن تموت منذ زمن.

بل لا نبالغ إن قلنا إن مشاعر اليأس من صلاح الحال عند شريحة من شرائح الأمة هو مظهر من مظاهر الحياة والصحة وإن كان من أدناها، فهو كالقيح الذي يملؤ الجرح كمظهر من مظاهر استشعار الجسم لوجود الجرح والمرض، لكن أخطر شريحة في الأمة إنما هي الغافلة عن حالها اللاهية عن مآلها والتي لا تكاد تتأثر بما حل بها، فمثلها كمثل جسم مصاب بالسرطان ولا تظهر على صاحبه أية أعراض إلى أن تظهر عليه أعراض مرض الموت حيث لا سبيل عندها للعلاج أو النجاة.

لقد حدد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث تداعي الأمم المرض الذي بسببه آلت حال الأمة إلى ما آلت إليه، كما أنه بأبي هو وأمي قد حدد الشفاء في حديث آخر أشبه ما يكون بالحديث الأول - إذ الداء فيهما واحد - حيث قال «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[1] .

إن هذا الغزو المسلح وهذا التطاول ومحاولات صرف الأمة عن دينها بالشهوات تارة وبالشبهات أخرى،كل ذلك لا يتم عبثاً ولا هو وليد العصر والساعة إنما هو امتداد للحرب المعلنة منذ اليوم الأول، لا لبعثة النبي عليه السلام فحسب بل لاصطفاء بني آدم وتكريم أبيهم عليه

(1) رواه أبوداود عن ابن عمر و صححه الألباني.

السلام وإسجاد الملائكة له، فهي حرب الحق والباطل، والخير والشر، إنها حرب بين حزب الله المفلحين وحزب الشيطان الخاسرين، ولن تضع الحرب أوزارها إلى قيام الساعة، وإن كان للباطل فيها جولات فإن العاقبة فيها للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، وإن كانت دولة الباطل والكفر ساعة فدولة الحق والإيمان إلى قيام الساعة.

تاريخ الأنبياء الذي هو تاريخ البشرية الحقيقي خير شاهد على ما نقول، فها هو نوح عليه السلام أول رسول يرسله الله عز وجل بعد ظهور الشرك في بني آدم، يجابه من اليوم الأول من دعوته بالطعن في شخصه الكريم: {وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ} [القمر: ٩]، وفي دعوته: {قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ} [الأعراف: ٦٠]، وفي أتباعه: {وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ} [هود: ٢٧].

وما كان نوح عليه السلام ببدع من الرسل بل إن الله سبحانه وتعالى يخبرنا في الكثير من الآيات بأخبار الأنبياء مع أقوامهم وفيها تفصيل لطعون القوم ولردود الأنبياء عليهم، ثم يجمل لنا كل ذلك حيث يسلي رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم إذ رماه قومه بالسحر والجنون فيقول: {كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الذاريات: ٥٢-٥٣] ، قال ابن كثير: «أي: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال

متقدمهم»[1].

فهم لم يتواصوا به ولكن قد تشابهت قلوب الأول والآخر منهم واجتمعت على الطغيان فاجتمعت كلمتهم على تكذيب الرسل والطعن فيهم.

و كما أن شريعة الإسلام ونبيه عليه السلام ليسا ببدع من الشرائع والأنبياء السابقين الذين تعرضوا للطعن والتطاول والهجوم فكذلك أعداء الإسلام في هذا العصر ليسوا ببدع من أعدائه الأولين في مكة والمدينة، ففي مكة المكرمة تنوعت اتهامات المشركين الباطلة فمنها ما تناول شخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم لبيان أنه لا يمكن أن يكون رسولاً من عند الله، ومنها ما تناول الحق المبين الذي جاء به للتقليل من شأنه وادعاء بطلانه، ومنها ما تناول شخصه عليه السلام بالسخرية والاستهزاء استكباراً وعلواً وإغاظة للمؤمنين.

فمن الأول [الذي تناول شخص النبي صلى الله عليه وسلم لبيان أنه لايمكن أن يكون رسولاً]: {} []

قولهم: {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر: ٦]، وقولهم: {بَلْ هُوَ شَاعِرٌ} [الأنبياء: ٥] وقولهم: {إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا} [الإسراء: ٤٧] وقولهم: {هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ} [ص: ٤] وقولهم: {مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ} [الدخان: ١٤] وما نفاه الله من قولهم:{فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ } [الطور: ٢٩]، وهي تهم تحمل بذاتها

(1) تفسير القرآن العظيم ج ٧ / ٤٢٥.

أكبر دليل على بطلانها وكذب دعوى أصحابها لتناقضها واستحالة أن تجتمع في رجل في آن واحد، فكيف يكون الرجل ساحراً ومسحوراً في آن؟ وكيف يمكن للمجنون أن يفهم الخطاب حتى يصير معلَّماً؟ أم كيف له أن ينطق بكلام الشعراء والكهان وهو لا يتأتى للمجانين؟

و من الثاني [الذي يتناول الحق المبين الذي جاء به للتقليل من شأنه وادعاء بطلانه]:

قولهم: {بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ} [الأنبياء: ٥]، وقولهم: {أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا} [الفرقان: ٥]، وقولهم: {إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ} [الأنعام :٧].

و لعلمهم في قرارة أنفسهم بتهافت هذه التهم قال مُقدَّمُهم الوليد بن المغيرة «فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ووالله إن لِقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى، وإنه لَيحطم ما تحته»[1]، فلما أبى عليه الكفار إلا أن يطعن بشيء قال: {إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ} [المدثر: ٢٥- ٢٦] فتوعده الله بسقر، ثم إنه سبحانه وتعالى رد على كل هذه الفرى بآية جامعة فقال:

(1) مستدرك الحاكم ، تفسير سورة المدثر.

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢].

ومن الثالث [ما يتناول شخصه الكريم بالسخرية والاستهزاء استكباراً]:

قولهم: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا} [الفرقان: ٤١]، وقولهم : {وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف: ٣١].

إلى غير ذلك من أنواع الاستهزاء كقولهم إنه عليه السلام أبتر فرد الله على جميع مبغضيه والمستهزئين به بالقول، فقال عز من قائل: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ} [الكوثر: ٣]، وبجميل الفعل إذ كما قال ابن كثير – رحمه الله –: «أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد»[1].

و أما في المدينة المنورة فقد انتقل المسلمون من حال الاستضعاف إلى حال التمكين وصار النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا سيما بعد غزوة بدر الكبرى ـ هو الحاكم المرجوع إليه في الدولة الإسلامية الفتية وكما بسط سلطانه الروحي على قلوب المؤمنين بسط سلطانه الحسي على كل رعايا الدولة التي لم تخل من عدو ظاهر لا يقل عداوة عن

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٨ / ٥٠٥.

مشركي قريش هم يهود المدينة وعدو باطن هو أخطر أنواع الأعداء ألا وهم المنافقون .

و مع تغير طبيعة العدو وتغير حال المؤمنين تغيرت طبيعة الحرب بين الحق والباطل، فما عاد من الممكن المجاهرة بالعداوة والإيذاء دون أن تنال سيوف الله من المعتدين، وصار من المستحيل الطعن في القرآن أو التطاول على مقام النبي عليه السلام في العلن سواء بتكذيبه أو الاستهزاء به عليه السلام، لكن المنافقين كانوا مع ذلك يؤذون النبي صلى الله عليه وآله وسلم نوع أذية دون التكذيب الصراح أو الاستهزاء البواح وهو من باب الاعتراض على بعض أفعاله عليه السلام، وقد حكى الله عز وجل عنهم شيئاً من ذلك كقوله تعالى: {وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ} [التوبة: ٥٨]، وقوله عز من قائل: {وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ} [التوبة: ٦١] أما الطعن في شخصه عليه السلام أو في أصحابه فإنما كان يتم في الخفاء قال مجاهد في تفسير قوله تعالى: {يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ} [التوبة: ٦٤]، قال: «قولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله أن لا يفشي سرنا علينا».

فإذا ما وصل خبر الطعن للنبي عليه السلام بإعلام الله سبحانه وتعالى له أو بإخبار المؤمنين بعض ما سمعوه من المنافقين جاؤوا يحلفون الأيمان المغلظة إنهم ما قالوا؛ كما في قول رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١]، أو قول الجُلاس بن سويد بن الصامت «إن كان ما جاء به محمد حقًّا، لنحن أشرُّ من الحُمُر![٢]».

ففي هذين القولين وما أشبههما مما جاء أصحابها يحلفون إنهم ما قالوا نزل قوله تعالى ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾[٣]، أو جاؤوا يعتذرون بأعذار واهية كما اعتذر بعضهم عن قوله يوم تبوك «ما لقُرَّائنا هؤلاء أرغبُنا بطوناً وأكذبُنا ألسنةً، وأجبَنُنا عند اللقاء!» وآخرون عن قولهم «يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشأم وحصونها! هيهات هيهات" ! فقالوا: "يا نبي الله، إنما كنا نخوض ونلعب" فنزلت ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾[٤].

إنه لمن المدهش أن نرى واقع المسلمين اليوم حيال هذه القضية – أعني التطاول على دين الله وعلى مقدساته – يجمع بين الحالين اللتين كانتا لهم، في مكة قبل الهجرة وفي المدينة المنورة بعدها، فحيث كان المسلمون مستضعفين في مكة المكرمة كان التطاول والاستهزاء مستعلناً مستعلياً، وحيث صارت لهم القوة والمنعة في المدينة المنورة بعد بدر انكفأ المتطاولون والمستهزئون خشية أن يطالهم العقاب الرادع، فعدلوا عن

(1) سورة المنافقون آية ٨.

(2) تفسير الطبري ج ١٤ / ٣٦١.

(3) سورة التوبة آية ٧٤.

(4) سورة التوبة آية ٦٥، تفسير الطبري ج ١٤/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

إظهار الكفر إلى النفاق، وعن الطعن في النبي صلى الله عليه وآله وسلم جهاراً نهاراً إلى التعريض به وبأصحابه عليه السلام في الخفاء.

و اليوم وعلى الرغم مما بالمسلمين من ضعف ظاهر، وبالرغم من انفراط عقد الخلافة الذي كان يجمع شتاتهم ويحفظ كيانهم ويذود عن مقدساتهم، فإن المرء لا تكاد تخطئ عينه بقاء هذه المعادلة القديمة، حيث كان الإسلام متمكناً في النفوس ومهيمناً على المجتمع فإن الباطل لا يجرؤ على المجاهرة بالطعن والتطاول على الأمور الأساسية الكلية لهذا الدين، فلا يمكن التعرض لذات الله سبحانه وتعالى ولا لنبيه الكريم عليه الصلاة والسلام ولا للقرآن ولا للسنة ولا لمن نقل القرآن والسنة، إنما يتم التعرض لقضايا جزئية لا بأسلوب الطعن والتطاول المباشر ولكن بأسلوب التشكيك أو الدعوة للتنوير والتطوير أو اللعب على وتر قول ضعيف أو رواية شاذة منكرة أو رواية إسرائيلية أو الاعتماد على كتب لم يلتزم أصحابها فيها الصحة إنما جمعوا فيها ما وقع لهم من روايات.

في هذه البيئة التي لا يزال فيها الإسلام مهيمناً على النفوس يكون من العسير جداً أن يتطاول الباطل على أسس الدين، وما كان منه كذلك فإنه يكون كمنطاد اختبار لمعرفة حصانة المجتمع والحال التي وصلت إليه، إنه يكون استثناء عن القاعدة كما كان كعب بن الأشرف، ولكن قد كان لكعب بن الأشرف محمد بن مسلمة، ولا محمد بن مسلمة له اليوم! ردةٌ ولا أبابكر لها.

و في المقابل كلما ضعفت هيمنة الإسلام الصحيح على النفوس اشرأب الباطل ليكسب أرضاً جديدة فرط فيها المسلمون، فبعد أن كان الحديث يدور حول جزئية كصحة حديث في البخاري مثلاً يصبح الكلام حول قيمة البخاري كله، وبعد أن كان الحديث حول عدالة راو من رواة الصحابة يصبح الحديث حول عدالة الصحابة كلهم، وبعد أن كان الكلام حول مناسبة حكم من الأحكام للعصر الحديث يصبح الكلام حول ضرورة عرض ما في القرآن على ميزان النقد التحليلي كأي كتاب آخر بنزع القداسة عنه[١]، وبعد أن كان الكلام حول بعض أحداث سيرة المصطفى عليه السلام يصبح الكلام عن النبي عليه الصلاة والسلام كمصلح من المصلحين، أو يتمادى البعض فينبش ما سوده المستشرقون للطعن في نبوته عليه السلام، كقولهم إن به مساً من جنون أو صرع، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

إذاً ما أشبه الليلة بالبارحة ! وما أشبه حال المسلمين في بقاع الأرض المختلفة بحالهم في مكة والمدينة، وما أشبه حال أعدائهم بحال أعداء سلفهم الأولين، وصدق الله حيث قال: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾[٢].

إن أعداء الأمة الذين أغراهم ضعفها فتكالبوا عليها بأساطيلهم ورجلهم ووسائل إعلامهم المتنوعة قد ساهموا في الوقت نفسه فيما وصلت إليه من ضعف فهم أحد أسبابه وأكثر المستفيدين منه في آن معاً،

(1) من أمثال نصر حامد أبو زيد في عامة كتاباته.

(2) سورة الذاريات آية ٥٣.

فمقارعة هؤلاء الأعداء ومنابذتهم ليست قاصرة على ساحات الوغى وحدها ولا هي قاصرة على ميدان إقامة الحجة ورد الأباطيل وحده بل الأمر كما قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[١]، قال ابن كثير رحمه الله: «قال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم . وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، وأغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم. وعن مقاتل، والربيع مثله.وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم. وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم»[٢].

وقد بين صلى الله عليه وسلم هذا الأمر أحسن بيان كما في حديث أنس (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)[٣]، وكما قال عن شعر ابن رواحة الذي هجا به الكفار: (فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَلامُهُ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقْعِ النَّبْلِ)[٤]، لذا فقد قال الطبري رحمه الله في مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾[٥] وقوله عز من

(1) سورة التوبة آية ٧٣ و سورة التحريم آية ٩.

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير - (ج ٤ / ص ١٧٨)

(3) رواه الإمام أحمد و النسائي و الحاكم في مستدركه و قال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، و ابن حبان في صحيحه بلفظ «بأيديكم و ألسنتكم».

(4) سنن النسائي باب استقبال الحج ، و صححه الألباني.

(5) سورة محمد آية ٧.

قائل: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾[١]: «فنصْر الله عبده: معونته إياه، ونصر العبد ربه: جهاده في سبيله، لتكون كلمته العليا»[٢]، ولا ينبغي أن يكون نصر العبد ربه قاصراً على الجهاد بالأبدان لأن مفهوم الجهاد أوسع من ذلك بكثير كما بين عليه السلام .

إن الأمة كلها مدعوة لنصرة الله بالجهاد بالمال والنفس واللسان لتكون كلمة الله هي العليا، الأمة كلها مدعوة للعمل المخلص والجاد للعودة إلى مهمتها الأولى وسيرتها الأولى، فالعالِم بعلمه والطبيب بطبه والمهندس بهندسته والتاجر بتجارته والمزارع بزراعته والعامل بعمله وكل فرد في موقعه، الجميع مدعو لهذا الجهاد، جهاد ينبغي له أن يكون منضبطاً بضوابطه الشرعية، فليس الجهاد بأي نوع من أنواعه غاية في حد ذاته إنما هو وسيلة لتكون كلمة الله العليا، حتى الجهاد بالنفس الذي هو ذروة سنام الإسلام ليس هدفاً في حد ذاته، ولو كان كذلك لصحت مقولة بعض الغيورين إن الأمة يجب عليها أن تجاهد أعداءها ولو فنيت كلها عن بكرة أبيها برجالها ونسائها بشيبها وشبابها وأطفالها، ولو كان هذا صحيحاً لصوب رسول لله صلى الله عليه وسلم قول من قال من المؤمنين لجيش مؤتة «الفرار» لكنه عليه السلام سماهم الكرار وسمى خالداً وهو الذي انسحب بهم سيفاً من سيوف الله[٣].

---

(1) سورة الحج آية ٤٠.

(2) جامع البيان للطبري - (ج ١٨ / ص ٦٥١).

(3) غزوات الرسول لابن سعد ج ١ / ٦٤.

فلئن كان نوع الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام ليس غاية في حد ذاته وليس هو مهمة الأمة الأصلية ولا دورها الرئيس المنوط بها، فمن باب أولى ألا يكون الرد على تطاول المتطاولين وإساءة المسيئين كذلك، إذ ما كان هذا الرد مهمة الأمة يوماً، إنما انتدب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهذه المهمة رجالاً بأعينهم.

إن مهمة الأمة ودورها الرئيس الذي يجب ألا يغيب عن أبنائها هو عبادة ربها وتعبيد الناس له سبحانه وتعالى ويكون ذلك بريادة الأمم وهداية الحيارى والأخذ بأيديهم إلى توحيد الله، تحقيقاً لقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1]، أما الرد على التطاول والإساءات والشبهات فهو مهمة عارضة لا بد منها في الطريق لتحقيق الهدف الرئيس، وهو إعلاء كلمة الله في أرضه وإظهار دينه وتعبيد الناس لربهم، ولن يتم هذا الأمر على الوجه الأكمل إلا إذا كانت الأمة ممكنة في الأرض .

ورغم أن الأمة كلها مدعوة لأداء هذه المهمة فإنه كما في كل دعوة للإصلاح لا بد من طليعة رائدة تتقدم الصفوف، وترسم لمن خلفها طريق الخلاص، وقد حاولت العديد من الحركات الإصلاحية القيام بهذا الدور الطليعي في واقع المسلمين اليوم إلا أن الكثير منها تظن أن طريق الصلاح والإصلاح إنما يكون بمنافسة أعداء الله في كل مجال تفوقوا علينا فيه، فالبعض يرى أن وسائل ريادة أعداء الله في عالم اليوم

(1) سورة آل عمران آية ١١٠.

هي وسائل الريادة التي ينبغي لنا أن نسلكها، فمن قائل يقول إن المشاركة السياسية للشعوب في صنع قرارها عبر الانتخابات قد مكنتها من تحقيق أهدافها في الازدهار والتقدم فيجب أن نجعل العمل السياسي هو شغلنا الشاغل كي نصل إلى التمكين عبر صناديق الانتخابات، وآخر يقول إن تلك الأمم إنما حققت الريادة بتفوقها الاقتصادي في عالم الصناعة والمال والتجارة فلا بد لنا من حيازة وسائل التفوق الاقتصادي لتعود لنا الريادة، وثالث يقول بل إن سبيل الخلاص هو حيازة المعارف والعلوم الحديثة فهي أساس كل تقدم وتمكين.

إن كل هذه الوسائل إجمالاً بلا ريب من وسائل العيش الكريم ومن أسباب التفوق في عالم اليوم ولكنها لا يمكن أن تكون هي وسيلة التمكين الصحيحة لهذه الأمة ما لم تخضع هي في نفسها للشريعة قبل أن تسعمل في بسط سلطان الشريعة، أما إن جردت عن الضوابط الشرعية فليست سبيلاً مرضياً ولن تحقق رقياً حضارياً، وهذا ما تثبته سيرة النبي عليه السلام وتاريخ المسلمين بل ترده بعض تجارب الواقع كذلك.

يُروى في كتب السير وكتب التفسير أن الكفار في مكة المكرمة عرضوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون ملكاً عليهم على أن يترك دعوته فأبى، ولقائل أن يقول قد كان بإمكانه عليه السلام أن يصبح حاكماً عليهم ثم بعد توطيد أركان حكمه يفعل ما يشاء، وهذا نوع من أنواع العمل السياسي قد يراه مناسباً من يرى الإصلاح يتمثل بخيار الإصلاح السياسي مجرداً عن ضوابط الشرع، فدل تركه عليه السلام ودل إقرار الله عز وجل له على تركه أنه ليس هو الطريق

لتحقيق التمكين المنشود دائماً. لكنه قد يكون كذلك إذا انضبط بالضوابط الشرعية من نحو التي تحققت في دولة الإسلام بالمدينة النبوية.

وفي العصر الحديث تجارب متعددة تتفاوت من حيث درجة قربها وبعدها من تحقيق هدفها في التمكين السياسي، لكن نتائجها كلها تؤكد أن هذا ليس هو الطريق، الدعاة يفرحون عندما يرون الشارع يموج بأعداد ضخمة من المسلمين المؤيدين لمن ينادي بتحكيم الشريعة في المجتمع أو عندما تصوت الجماهير للداعين إلى ذلك فيحققوا مكاسب في الانتخابات، وهذا بلا شك أمر مفرح لأنه يدل على مدى ارتباط الأمة بأصولها وأن نداء الإيمان يلقى قبولاً لدى فئات كثيرة في المجتمع، لكن الواقع يشهد أن هذه التحركات الشعبية العاطفية سريعة الانفعال لكنها قصيرة النفس وسريعة الخمود كذلك، فهي لا تستطيع الصبر والانتظار وتحمل المشاق في سبيل تحقيق الأهداف، وعند أول ريح وأول اختبار جدي تنحسر هذه التحركات ويبقى السياسيون لوحدهم في الميدان.

بل إن الأمر ليتجاوز ذلك إلى ما هو أعظم منه فيوم أن تطاول المجرمون على مقام النبوة فصوروا الصور ورسموا الرسوم امتلأت شوارع المسلمين بالتظاهرات الغاضبة لنبيها عليه السلام، ثم ما لبثت بعد حين أن هدأت وفترت رغم أن أعداء الله لم يقدموا ما يذكر بل ربما أحدث بعضهم مزيد طعن وإساءة، وصدق رسول الله صلى الله عليه

وسلم حيث قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل»[١]، فالغثاء هو الزبد الذي يحمله السيل، وهو يكون من الكثرة بحيث يغطيه ويكون منتفشاً منتفخاً يحسبه المرء شيئاً وما هو بشيء، إنما هو هواء وخواء، سرعان ما يتلاشى مع توقف السيل.

إننا لا نريد أن يكون الشرع المنزل من رب العباد مشروعاً يتم التصويت عليه من قبل العبيد فيكون عرضة لقبولهم وردهم وأمرهم ونهيهم، فإن هذا لايستقيم والغاية التي خلق الله لأجلها العباد، وإذا كان المشروع الإصلاحي مؤيداً بالوحي فهو خيرة الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢]، فالمطلوب هو أن تتشبع قلوب المسلمين بهذا المشروع وأن يكون مقوم حياتهم، ورؤيته قائماً على أرض الواقع هو هدفهم جميعاً. وقد أثبتت التجارب بعد نظر أحد العلماء الربانيين عندما قال له بعضهم إن الملايين في الشارع يطالبون بتحكيم شرع الله، فقال كلمته المأثورة: فكم عدد المصلين في المساجد في صلاة الفجر؟ إذ قد علم بثاقب بصيرته أن العبرة ليست بالعواطف التي تذبل وتخمد بأسرع مما تشب وتتوقد، العبرة بالثبات والاستقامة وبأن يصبح هذا الدين متمكناً في القلوب وتصدق ذلك الجوارح (قل آمنت بالله ثم استقم)[٣]، فعاد التمكين السياسي أولاً لبناء الفرد.

---

(1) رواه الإمام أحمد ٥/ ٢٧٨ وأبو داود ٢/ ٥١٤ (٤٢٩٧)، ورواه غيرهم وصححه الألباني.

(2) سورة القصص آية ٦٨.

(3) رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه.

و أما التمكين الاقتصادي فقد أتى النبي صلى الله عليه وسلم المدينة والأسواق والأموال بأيدي اليهود كما هي اليوم، فما نازعهم صلى الله عليه وسلم شيئاً من ذلك، حتى إنه عليه السلام قد مات ودرعه مرهونة عند يهودي، فلو كان هذا هو سبيل التمكين لما فرط فيه البتة، بل قد صح عنه عليه السلام أنه قال: «جعل رزقي تحت ظل رمحي»[1]، فدل على أن الرخاء الاقتصادي إنما هو تابع للتمكين في الأرض لا العكس، وهذا بين واضح من تاريخ الفتوح بما لا يحتاج إلى مزيد تدليل عليه.

و أما تحصيل العلوم والمعارف الدنيوية فرغم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد هيأ أمته منذ رحلة الهجرة للنصر على فارس ثم هيأها بعد ذلك للنصر على الروم، إلا أنه عليه السلام لم يشغل أصحابه بمنافسة هاتين الحضارتين فيما بين أيديهما من علوم ومعارف دنيوية، وهذا دليل كذلك على أن هذا ليس هو سبيل التمكين، إن تاريخ الإسلام والمسلمين ليشهد على عكس ما ترجوه دعوات التمكين السياسي والاقتصادي والعلمي، تاريخ الإسلام والمسلمين شاهد على أن كل أسباب التمكين هذه لم تكن يوماً من الأيام هي السبب الرئيس لريادة المسلمين وتمكينهم في الأرض ابتداءً، العكس هو الصحيح فإن الأمة ما تقدمت وازدهرت في هذه الميادين إلا نتيجة لتمكنها في الأرض، فعندما بسط الإسلام سلطانه في أرجاء المعمورة بعد أن فتح

(1) رواه أحمد من حديث ابن عمر، و صححه الألباني و قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (ج ٤ / ص ٨١) : إسناده صحيح .

البلاد بالسنان وفتح القلوب بالقرآن، أتت الدنيا أبناءه راغمة فقامت لهم في مدة وجيزة حضارة لم يعرف الوجود لها مثيلاً. ولسنا بهذا نقلل من أهمية السبق في تلك المجالات والعمل على تقويتها بل كلها من باب الإعداد المأمور به، فقد أرشدت الشريعة إلى أهمية الأخذ بنحو تلك الأسباب، ولكن الإشكال في الأخذ بها مطلقة دون هدف أو باعث مرضي، أو أن تكون غير منضبطة بالشرع مسخرة لإعلائه ونشره منبثقة عن مقاصده بالدرجة الأولى.

إن الكثير من الدعوات الإصلاحية في واقعنا المعاصر تغيب عنها هذه الحقيقة المهمة وهي أن صلاح الأمة اليوم منوط بتحقيق ما حققته الأمة في السابق حتى نالت شرف الريادة.

ولعله جدير بالتأمل قول النبي عليه السلام عندما وصف الداء: "حب الدنيا وكراهية الموت"، لم يقل إن الدواء هو: "كراهية الدنيا وحب الموت"، وكذلك في حديث العينة الذي مر قبل فإنه عليه السلام لم يقل إن الدواء هو الجهاد أو ترك الزرع وفك أذناب البقر أو الانتهاء عن البيوع المحرمة وهي الأدواء التي ذكرها في الحديث، بل بين عليه السلام أن الدواء يجب أن يكون شاملاً كافياً شافياً، فليس سوى الرجوع إلى الدين كل الدين بشموله وكماله الذي ما فُرِّطَ فيه من شيء.

و قد وعى سلفنا الصالح هذا الأمر وعياً تاماً وعلموا أن الريادة والعزة لهذه الأمة ورفع الذل عنها لا يكون إلا بالتمسك بدين ربها الذي ارتضاه لها وأنزله لإصلاح شأنها من فوق سبع سماوات، لذا قال عمر رضي الله عنه: «إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب

العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»[١].

إن الرجوع إلى الدين متحتم على مجموع الأمة حتى يعود لها عزها الضائع ومجدها التليد، وكي ترجع الأمة إلى دينها لا بد لها ممن يصفي لها الدين مما علق به من شوائب ليست منه، ثم لا بد لها ممن يدعوها إلى هذا الدين المصفى الموافق لما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ويقربه إليها، فطليعة الأمة هي من تقوم بهذه المهمة الشاقة وتحمل أعباءها ولا يصلح لهذه المهمة إلا علماء هذه الأمة، وإذا قلنا علماء الأمة فإنما نعني بهم من عرف أن الصلاح إنما هو بالسير على ما كان عليه الرعيل الأول في الفهم والعلم والعمل، دون إغفال لتغير الأدوات بتغير العصر، إننا نعني بهم هؤلاء الربانيين الذين يوقنون بصدق مالك رضي الله عنه حيث قال: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[٢]، فهؤلاء هم ورثة نبيهم عليه السلام حقاً وصدقاً، فهم من تعقد الآمال عليهم بعد توفيق الله كي يوقظوا الأمة من غفوتها ويقيلوها من عثرتها ويأخذوا بيدها إلى ما فيه مرضاة ربها ورفعة شأنها.

ويلحق بالعلماء طلبة العلم، ولا نريد بهم من يسعون للتخصص في العلوم الشرعية والذين سيكونون في يوم من الأيام علماء الأمة فحسب، بل نعدي معنى طلب العلم ليشملهم ويشمل كل من له علم شرعي يأخذه من العلماء المعتبرين ليكون له نور يضيء دربه في تخصصه الدنيوي.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك و قال صحيح على شرط الشيخين و وافقه الذهبي.

(2) ينظر اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ١/ ٣٦٧.

التحديات التي تواجه الأمة في العصر الحديث:

الموضوع عن دور العلماء والمثقفين في استراتيجيات المواجهة، ولأن الحديث عن خطط ثابتة بعيدة موصلة لأهداف كبرى فلن أتحدث عن ظواهر وردود أفعال إزاء أحداث بعينها، ولعله من المناسب أن يتركز على مكمن الخلل الذي سبب تلك المظاهر وجرأ العدو على مقدسات ومقدرات الأمة.

إن التحديات الكبيرة والكثيرة التي تواجهها الأمة في هذا العصر تستلزم من الجميع التعاون على أهداف مشتركة وانتهاج أسلوب العمل القائم على المؤسسات والتكتلات للتغلب على هذه التحديات، أما العمل المنفرد خارج السرب فإنه وإن كان مهماً وله أثره في محيطه، إلا أن تأثيره يبقى في حيز ضيق ولا يمكن أن يأتي بحل لأزمات الأمة العامة، مالم تتح لصاحبه قدرات فائقة. إن التحديات الكبيرة تستوجب أعمالاً كبيرة وهذا لا يمكن أن يكون للأفراد عادة، بل لا بد من توحيد الجهود بالتعاون مع المعنيين أو بالانتظام في مؤسسات تسعى لمواجهة هذه التحديات بالإضافة إلى العمل الفردي الذي يظل له مكانه، ولعل من أعظم التحديات التي تواجه المجتمع الإسلامي:

التحدي الأول ـ الجهل: إنه مما لا يخفى على كل ذي لب وبصيرة أن الأمة تعاني من نقص في علمائها، فكلما مات عالم ترك مكانه ثغرة لا تكاد تجد من يسدها، والنتيجة الطبيعية لذلك أن يقل العلم ويكثر الجهل مصداقاً لقوله عليه السلام «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ

مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤوسًا جُهَّالا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1].

إن حاجة الأمة لعلماء الشريعة أعظم من حاجتها للأطباء والمهندسين؛ إذ جهل الأمة بدينها هو أعظم حاجز يحجزها عن التمكين في الأرض، فإن كان جهل الأمة بالعلوم الحديثة يفسد عليها بعض دنياها فإن جهلها بأمور دينها يفسد عليها دنياها وأخراها معاً، فمن أعظم الواجبات على العلماء في هذا العصر نشر العلم الشرعي وإنشاء آليات مستقرة تكفل تخريج العلماء لسد الفراغ الحاصل، وفي سبيل ذلك يمكن عمل الآتي:

أولاً: أن يسعى العلماء عند أهل الحل والعقد وعند أصحاب المال من الفضلاء لتفعيل دور الأوقاف الإسلامية، فتوقف الأوقاف على إنشاء معاهد العلم وكفالة وكفاية طلبة العلم، وهذا الشأن قد كان معهوداً في عصور الإسلام الزاهرة ثم بدأ يندثر إلى أن قصر الأمر على نطاق ضيق.

ثانياً: مما ينبغي كذلك أن يقوم العلماء باختيار من يتلمسون فيه النبوغ والصلاح من طلابهم لكفالتهم مادياً عبر الأوقاف وعلمياً بعمل منهج خاص لهؤلاء الطلاب النابغين يهدف إلى تخريج علماء متخصصين في شتى مجالات الشريعة.

ثالثاً: ينبغي أن يعمل العلماء على تشجيع الأسر المسلمة على أن توقف كل أسرة ابناً من أبنائها أو أكثر لطلب العلم الشرعي كما فعلت

(1) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، و اللفظ للبخاري.

امرأة عمران حين أوقفت ما في بطنها لعبادة الله ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾[1].

رابعاً: من المهمات التنسيق بين علماء الإسلام ودعاته في كل بلد معني، ولو عن طريق إنشاء جمعية أو جمعيات للعلماء تقوم بالبحث عن الواقع العلمي في هذا البلد لمعرفة العجز في التخصصات الشرعية وكذلك لمعرفة الوفرة إن وجدت ومن ثم التنسيق فيما بين العلماء بحيث توضع المناهج الدراسية بما يسد العجز، وبحيث تكمل جهود العلماء بعضها بعضاً منعاً لاستنزاف كل الجهود في باب أو أكثر من أبواب العلم على حساب غيره.

خامساً: ينبغي أن يكون لأهل العلم في بلاد الإسلام المختلفة تواصل فيما بينهم وأئمة كبار يرجعون إليهم وينزلون على حكمهم فيما لابد من الالتقاء فيه، ولو كان ذلك بنحو الرجوع إلى هيئة أو جمعية عالمية للعلماء تكون مرجعاً للجمعيات العلمية المحلية وللعلماء الناصحين في أصقاع الأرض المختلفة تسهم في التنسيق بينهم على نفس ما في النقطة السابقة، وذلك بعمل تبادل علمي بين الجمعيات وأهل العلم في البلاد المختلفة.

سادساً: وضع خطط لنشر العلوم ورفع منسوب المعرفة لدى الأمة، ومن ذلك مثلاً الاهتمام بتحقيق التراث وفق خطة مدروسة فلا يكون الهدف هو مجرد إخراج الكتب التي ما زالت مخطوطة في بطون المكتبات

(1) سورة آل عمران آية ٣٥.

حول العالم، فليس كل مخطوط يكون نفيساً وجديراً بالإخراج، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، فيركز على الكتب الجامعة التي يغني الواحد منها عن الكثير مما عداه، مع مراعاة عدم التكرار وأن يتولى أمر التحقيق أشخاص موثوقون.

سابعاً: العمل على نشر العلوم الشرعية في العامة بكافة الوسائل التقليدية والمبتكرة الحديثة ابتداء من الدروس والكلمات في البيوت والدور والمساجد والمحافل إلى مبتكرات العصر كالمحطات الإذاعية والقنوات الفضائية ومواقع الإنترنت، بالإضافة إلى نشر كتب تحوي كل ما يحتاج إليه المسلم من علوم في علاقته مع ربه ونفسه، وينبغي أن يكون كل ذلك بأسلوب مبسط يناسب العصر وحال الناس.

أما المثقفون فيبرز دورهم في محاربة الجهل ونشر العلم من واقع كونهم أكثر عدداً من العلماء ومن واقع تعدد اختصاصاتهم وبالتالي قوة اندماجهم في المجتمع وتأثيرهم في شرائح وأعداد أكثر بكثير مما هو متاح للعلماء لاسيما في التواصل الشخصي، إن دورهم كبير كواسطة بين العلماء والشريحة الأكبر، وبهم قوام وسائل تبليغ الدعوة لمجتمعاتهم، فهم ينهلون من علوم العلماء ليبثوها في الناس أو ييسروا الآليات والوسائل التي تهيء للعلماء بث مادة الحياة والشريعة في المجتمع، وكذلك يسجلون احتياجات المجتمع ويرصدون نقاط ضعفه ليضعوها بين أيدي العلماء فيجدوا لها الحلول الشرعية المناسبة، فدورهم في نشر العلم ومحاربة الجهل دور مكمل للعلماء وخادم له ويمكن في هذا المجال رصد ما يلي:

أولاً: الإقبال على تلقي العلم الشرعي من العلماء المعتبرين بتحصيل العلم المتعين على كل مسلم، ثم العلم المتعين على هذا المثقف بخاصة مما له تعلق بتخصصه ومجال عمله.

ثانياً: حث الناس على غشيان مجالس العلم العامة التي تبسط للمسلم تعاليم دينه وتبصره فيه.

ثالثاً: إتقان المثقف عمله في مجال تخصصه ليكون مقصوداً من عامة الناس وموثوقاً به وإعطاء صورة إيجابية عن المسلم الذي يحمل هم أمته ويحافظ على أداء واجباته، وهذه دعوة بالمثال والقدوة لنهل العلم الشرعي من العلماء.

رابعاً: توظيف ثقة الناس لدعوتهم إلى الانخراط في مشروع نشر العلم ورفع الجهل عن الأمة وذلك بتشجيع الآباء على أن يوقفوا ابناً أو أكثر لتعلم العلم الشرعي بغية إخراج علماء يحملون هذا الدين لمن بعدهم.

خامساً: توظيف هذه الثقة لدى أهل الصلاح والجاه والمال لدعم المشاريع الوقفية المتخصصة في نشر العلم وكفالة طلابه.

سادساً: نشر الكتب العلمية التي يتم تأليفها بأسلوب مبسط كما مر سابقاً، وعدم الاكتفاء بنشر الكتيبات الدعوية التي تعنى بالجوانب الأخلاقية أو الوعظية.

سابعاً: العمل على ابتكار الوسائل الحديثة المعينة على الدعوة، وتيسير مخترعات العصر وتسخيرها ليستفاد منها في تبليغ العلم.

ثامناً: رؤية ما يمكن عمله في الوسائل العصرية وحذف ما اعتورتها من مخالفات حتى تكون وسائل شرعية نافعة للأمة والمجتمع.

تاسعاً: تبصير أهل العلم بملابسات ما يتعلق بتخصصاتهم، حتى يكون حديث المختصين في علم الشريعة عن دراية وبصيرة بالجوانب الأخرى التي قد تكون مؤثرة في الأحكام، بل قد تكون الأحكام مبنية عليها.

عاشراً: تمثيل الرؤية الإسلامية في المحافل العالمية للمختصين في الشؤون المختلفة، وإبراز الوجه الحسن للضوابط والمحددات الشرعية التي تضعها الشريعة أو ترفعها في ذلك المجال.

التحدي الثاني: الفرقة والاختلاف والتنازع: إن هذا التحدي لا يقل خطورة عن سابقه فهو كفيل بإعاقة الأمة عن تحقيق التمكين حتى إن كان أفرادها كلهم من العلماء العاملين فكيف والحال كما لا تخفى؟

قال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1]، وقال عليه السلام (دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين)[2].

و يمكن تحديد دور العلماء في التصدي لهذا التحدي بما يلي:

أولاً: توحيد المواقف التي لابد من توحيدها تجاه بعض القضايا

---

(1) سورة الأنفال آية ٤٦.

(2) صدر حديث رواه الترمذي عن الزبير بن العوام ، و حسنه الألباني.

وبالأخص التي يكون النزاع فيها سبب فشل، وذلك بالرجوع إلى المرجعيات الشرعية والعلماء الربانيين أوالجمعيات والهيئات التي سبق الحديث عنها.

ثانياً: الرجوع إلى أهل الشأن لتحديد الموقف من الفرق والطوائف التي يكون الخلاف معها غير سائغ والتزام الأعضاء بموقف مرجعيات شرعية أو هيئات علمية في ذلك مراعاة للمصالح العليا للأمة وإنزالاً لموقفها منزلة موقف الإمام.

ثالثاً: نقل هذا الالتزام إلى طلاب العلم والجمهور كل بحسب حاله ومدى تعلق الأمر به.

رابعاً: إنشاء لجنة من الحكماء في كل جمعية محلية تكون مكلفة بحل ما قد يحصل من تنازع بين العلماء داخل البلد الواحد، وكذلك إنشاء لجنة مماثلة لحل ما قد يحصل بين العلماء على المستوى المحلي.

خامساً: بذل كل الجهود الممكنة لحل النزاعات التي قد تنشأ بين حكام البلاد الإسلامية عن طريق لجان عالية ولجان محلية، وتفعيل دور العلماء في مناصحة الحكام لتضييق دائرة الخلاف الذي من شأنه الزيادة في ضعف الأمة.

أما بالنسبة للمثقفين فيكمن دورهم فيما يلي:

أولاً: الالتزام بما يقرره أهل الشأن من العلماء والهيئات العلمية ولاسيما في الشؤون العامة، فلا يفتئتوا على أهل التخصص بمسوغ الثقافة العامة، بل عليهم السعي في نشر الوعي بين المسلمين وفقاً لما قرره أهل العلم المعنيون حسماً لمادة الخلاف الذي قد ينجر إليه بعض

العامة تعصباً دون أن يكون له مزيد اطلاع على طبيعة الخلاف وأبعاده.

ثانياً: المتابعة الواعية والمستمرة لواقع المجتمع لرصد حالات المخالفات الشرعية والعمل على إزالتها مباشرة أو عن طريق الرجوع للعلماء أو المعنيين الذين لا يحيطون بما أحاط به أولئك المثقفون نظراً لمباشرتهم مجالات حياتية مختلفة.

ثالثاً: توعية الجمهور بخطورة كافة أشكال الاختلاف والتفرق وأثره السلبي على مسيرة الأمة نحو التمكين.

رابعاً: تسخر الوسائل العصرية من أجل ذلك بحسب تخصصاتهم فالصحفي يخصص عموده، والإذاعي يبذل كلمته، والفضائي ييسر قناته، والطبيب ينفع بطبه، والمهندس بمبتكراته، والمعلم والمربي يغرس القيم في نفوس طلابه وكل واحد على ثغر.

التحدي الثالث ـ تداعي الأعداء: وهو كما سبق بيانه نوعان مادي ومعنوي، ومحور كلامنا هنا عن النوع الثاني الذي سبق بيان خطورته وهو المتمثل في التطاول على مقدسات الأمة إما ببث الشبهات لصد الناس عن دينهم وإما بالاستهزاء والطعن لإغاظة المؤمنين، والملاحظ أن مهمة بث الشبهات يقوم بها جنباً إلى جنب مع أعداء الخارج قوم من بني جلدتنا مصداقاً لما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم: «دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها قلت يا رسول الله صفهم لنا قال هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا»[1]، وهؤلاء لا يجرؤون على

(1) متفق عليه من حديث حذيفة رضي الله عنه.

الطعن في الدين مباشرة فهذا متروك لأعداء الله من خارج بلاد المسلمين، وسوف نتناول أمركل من الشبهات والتطاول لبيان الواجب حيال كل منهما.

واجب العلماء حيال الشبهات المثارة:

أولاً: التعامل مع هذه الشبهات من منطلق القوة والعزة والتحرر من الهزيمة النفسية، فتقرر أحكام الإسلام بقوة ووضوح، ويبين بطلان الباطل وإن ألبس ثوباً حضارياً بجلاء لاغموض فيه، وبحمد الله فإن ديننا كامل بشهادة الله سبحانه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، صالح لكل مكان وآن، وكل من احتج عليه ليبطل بعض ما فيه فحجته داحضة عند ربه، فليس مقبولاً بحال أن نرد الشبهات عن الإسلام وكأنه قابع في قفص الاتهام أوكأن أحكامه متهمة والمنكر والباطل الذي يدين به العدو بريء من التهمة، بل ينبغي السعي إلى ما فوق ذلك إلى تجاوز حصر الخطاب في التبرئة والتسويغ، إلى بيان أن تلك الأحكام والتشريعات حق لابد من التزامه وليس للبشرية صلاح بغيرها، وأن من خالفه فقد جنى على نفسه وعلى الناس كافة، وقد أتى شيئاً إداً ومنكراً ينبغي أن يستره لا أن يتهم ويهاجم، وللأسف بعض الذين دخل قلوبهم شيء يحرص على تبرئة الإسلام بالتنصل من أحكامه والاستحياء من ذكرها بل والإنكار لها، وهذا مسلك يحقق مراد العدو بأيسر سبيل.

ثانياً: عرض الحقائق كاملة على الجمهور كما هي دون مواربة أو تزيين أو تزييف لأن ذلك أدعى لرد الشبهة، فعرض بعض الحقائق

وإخفاء بعض ليس مقبولاً ـ لا سيما في عصر الفضاء المفتوح ـ إذ سماع بقية الحقيقة من الأعداء يفقد الثقة في كلام الراد على الشبهة ويعطي العدو مصداقية قد يبث بواسطتها مئات الكذبات إضافة إلى الحقيقة التي أتى بها. ولاشك أن الشبه التي تثار فيها السمج الضعيف وفيها ما يخطف القلوب ويزعزع غير الراسخين، فيها ما هو محض افتراء، وفيها ما بني على أخطاء المسلمين في تطبيق الشرع على واقعهم، والرد على العدو يتطلب الصراحة والوضوح في التعرض لذلك كله بما يناسب كل مقام.

ثالثاً: تبسيط الردود ومراعاة حال الناس المخاطبين وعدم نقل الشبهة خارج النطاق المكاني والزماني الذي أثيرت فيه أو البدء بطرح الشبهات للرد عليها تكثيراً للخير وتقليلاً للشر وسداً لأبواب الفتن.

رابعاً: استخدام الوسائل الحديثة كالفضائيات والشبكة العنكبوتية والهواتف المتحركة في تبيين زيف الباطل والتوعية ببطلان ما يثار على نطاق واسع.

خامساً: التحذير من رؤوس الضلالة والتشهير بهم جزاء وفاقاً لما اقترفته أيديهم كي لا ينخدع بهم من لا بصيرة له بحقيقة أمرهم من المسلمين، وبيان أنه ما من باقعة يرمون بها الإسلام ونبيه عليه السلام، وأهله إلاّ كانوا هم أحق بها.

سادساً: السعي لدى الجهات المعنية لتفعيل الأنظمة التي تنص على عدم التعرض لثوابت الأمة وتعاقب على هذا الجرم، أو السعي لإصدار مثل هذه الأنظمة في حال عدم وجودها.

سابعاً: عقد المناظرات المفتوحة من قبل المتخصصين المتمرسين مع رؤوس الجهل والضلالة ممن يروجون لهذه الشبهات والضلالات، لتزييف دعاواهم وبيان أن كل نقيصة يحاولون إلصاقها بالإسلام هو منها بريء وباطلهم أولى بها، فرؤية الباطل يتلجلج أمام الحق من أعظم وسائل دفع شبهه عند العامة، ولا يخفى أن لهذا ضوابط ينبغي أن تدرس وملابسات ينبغي أن تعرف فلا يقدم على نحو هذا العمل بغير دراسة، وإلاّ فإن مرده قد يكون سيئاً، والأصل أن حجة الله ظاهرة، وأن الحق أبلج والباطل لجلج، غير أنه ليس كل فرد مؤهل لهذا العمل ولو كان عالماً.

أما المثقفون فإن دورهم لا يكاد يختلف عن دورالعلماء من أولاً إلى سادساً، بيد أن لهم خصوصيتهم باعتبار تخصصهم وهذا يفرض عليهم:

١- نوعاً من الخطاب الذي يناسب مجالهم وقد لايكون معهوداً عند العلماء بيد أنه لايكون مستنكراً من قبلهم، وقد يكون منصباً في أحيان كثيرة في إطار المصلحة والدليل العقلي وما يقتضيه تخصص كل واحد منهم.

٢- خطاب شريحة خاصة قد لايخلص إليها العلماء، وبالخطاب الأقرب إلى فهمها.

أما سابعاً فليس مطلوباً منهم مناظرة رؤوس الضلالة، ولكن يستعاض عن ذلك بمناقشة مريديهم وناشري شبهاتهم، فإن للضلال كذلك مثقفون ناصرون، وساح الشبكة العنكبوتية مليء بالمواقع الحوارية التي كان لكثير منها بفضل الله أثر كبير في هداية الكثير من

الناس إلى دين الحق، فهي وسيلة كذلك للذب عن هذا الدين وتفنيد شبهات أعدائه، كما أن ميادين الحياة المختلفة مجال رحيب حقيق بالمثقفين أن يثبتوا للناس فيها جدارة الشرع والدين الإسلامي بالسيادة والريادة فيه.

ويمكن أن يضاف إلى ما سبق بالنسبة للمثقفين:

أولاً: يجب أن يكونوا حلقة وصل بين العلماء والناس فإن الردود على بعض الشبهات قد يخفى وجهها على بعض الناس فلا بد للمثقفين من بيانها لهم أو عرض الأمر على العلماء لتوضيح الأمر بمزيد بيان.

ثانياً: القيام بأنشطة مكملة لجهود العلماء فارضة لما قرروه في أرض الواقع وذلك من كل بحسبه وربما كانت ثمّ أمور عامة من نحو حملات جمع التوقيعات وإرسالها إلى الجهات الناشرة للشبهات كي تقوم بنشر الحقائق والتوقف عن نشر الشبهات المستندة إلى الافتراءات والأكاذيب، وأيضاً نشر الردود على الشبهات الأخرى التي يكون مستندها التفسير المنحرف أو الروايات المكذوبة المبثوثة في بعض الكتب.

ثالثاً: القيام برفع الدعاوى على مثيري الشبهات وناشريها إذا كانت الأنظمة المحلية تسمح بذلك.

رابعاً: حث الجماهير على مقاطعة الصحف والمجلات ودور النشر وكافة وسائل الإعلام التي تروج لتلك الشبهات وتمتنع عن التوقف عن ذلك.

ونضرب مثالاً لبعض ما يثار من شبه وهي شبهة قديمة أعيد تبنيها على مستوى رفيع في الآونة الأخيرة وهي أن الإسلام قد انتشر بالسيف.

إننا إن واقعنا تحت وطأة الهزيمة النفسية فسوف نعد هذه الشبهة تهمة وسبة يجب أن نتبرأ منها، وقد يتهرب البعض بذكر الآيات التي تحض على الصبر على الأذى وكف اليد عن القتال وأنه لا إكراه في الدين ولكم دينكم ولي دين وأن القتال إنما أذن لمن قوتلوا مظلومين، ثم يعرج على أحداث التاريخ ليقول إن المدينة المنورة والكثير من بلاد المشرق وإفريقية إنما فتحت بالقرآن، ثم يأتي إلى العصر الحديث ليؤكد مقولته بانتشار الإسلام في بلاد الغرب بالدعوة والقرآن.

وهذا الكلام صحيح لا ريب في ذلك ولكنه ليس كل الحقيقة، فالحقيقة الكاملة هي أن القتال في الإسلام شرع على ضربين، فقتال لدفع الظلم وصد العدوان وهو قتال الدفع، وقتال لنشر دين الله في الأرض وهو قتال الطلب، وليس المقصود منه إكراه الناس على الدخول في الإسلام فإن هذا ما عرف في تاريخ المسلمين قط، وليس المقصود منه نهب خيرات الشعوب كذلك فهذا مما اعترف المنصفون من أهل الكتاب وغيرهم أنه ما كان هم المسلمين ولا ديدنهم، إنما المقصود هو إيصال دين الله للناس في كل مكان وإزاحة كل مانع أو عائق يحول بينهم وبين الدخول فيه.

فالقتال ما كان غاية في الإسلام قط، بل في كل الفتوحات فإن أهل البلاد يخيرون بين الدخول في الإسلام فيصبح للحال لهم ما للمسلمين

وعليهم ما عليهم، أو دفع الجزية التي يعفون في مقابلها من دفع الزكاة الواجبة على المسلمين، وينعمون كذلك بحماية المسلمين لهم مع إعفائهم من القتال حال تعرض بلادهم للهجوم من أي عدو كان، فإن أبو الإسلام أو الجزية فحينها لم يبق إلا السيف لإزالة دولة الكفر وفتح الأبواب لمن شاء من الناس ليدخلوا في دين الله أفواجاً أو ليفرض الحكم الأصلح للبشرية.

أما قول نصف الحقيقة فيجني جناية كبرى على ضعيف العقل من المسلمين إذ هو يعلم تماماً أن كثيراً من البلاد قد فتحت بالسيف فيجد صاحب الشبهة صادقاً فيما يقول ويبدأ في الشك في أمر من يدفع الشبهة بنصف الحقيقة، وهذا فتح لباب شر مستطير، وكما قيل القلوب ضعيفة والفتن خطافة، فما الذي يحوجنا إلى مثل ذلك ويحصرنا في جحر الضب هذا؟

وعلى الطرف المقابل فإن غير المسلمين قد يسمعون هذا الكلام وهم يعرفون خلافه فيكون هذا سبباً في صدهم عن الدخول في الإسلام، طالما أن الدعاة إليه لا يقولون الحقيقة، وفي هذا من الشر والفساد ما فيه، لذا فإنه لا بد من الوضوح أو الشفافية بلغة العصر، ثم إن الواقع يدل على أن محاولات الخداع التي ينتهجها بعض المدافعين عن الإسلام من منطلق أهوائهم وآرائهم وعقولهم اللواين لحقائقه لا تجدي فتيلاً، فإن الغرب بمراكز دراساته وبحوثه ومستشرقيه ومستغربيه منا خبير بما عندنا، ولكن الساسة يستفيدون من أمثال هذا المغفل الذي يزعم الدفاع عن الإسلام بكتم بعضه وإنكار حدوده ليقرروا للمسلمين أن الإسلام

المعتدل هو ذا، وهم يعلمون كما يعلم ذلك المسكين كذبهم وكتمهم للحق.

فالواجب أن لا نخجل من ديننا الذي ما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا وله فيها حكم هو خير حكم، وكيف نخجل من ديننا وهو خاتم الأديان والقاضي عليها وليس فيه إلا الحق؟ بل إن سلفنا الصالح ما خجلوا من أي تعليم من تعاليمه مهما ظهر للبعض أنه مخجل ففي حديث سلمان رضي الله عنه " قال بعض اليهود وهم يستهزئون به إني لأرى صاحبكم يعلمكم حتى الخِراءة قال سلمان أجل أمرنا أن لا نستقبل القبلة ولا نستنجي بأيماننا ولا نكتفي بدون ثلاثة أحجار ليس فيها رجيع ولا عظم "[1] قال السندي رحمه الله " والأقرب أنه رد له بأن ما زعمه سبباً للاستهزاء ليس بسبب له، حتى المسلمون يصرحون به عند الأعداء "[2]، إن الذي يقوم بعرض أنصاف الحقائق على الناس ظاناً أن هذا أدعى لقبولهم الإسلام والدخول فيه يجني على الدعوة جناية عظيمة كما سبق، وهو في الوقت نفسه يجني على نفسه أعظم جناية إذ يكون قد أنزلها منزلة ليست لها فليس هو أحب لهداية الناس من الله سبحانه وتعالى الذي يفرح بتوبة عبده، ويكون كذلك قد غفل عن كونه وارثاً للنبي صلى الله عليه وسلم ومقتفياً في دعوته لأثره، وقد قال له ربنا عز وجل: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ

(1) رواه أحمد و مسلم و أصحاب السنن و اللفظ لأحمد.

(2) حاشية السندي على سنن النسائي ج١ / ٣٦.

رِسَالَتَهُ﴾[١]، وقال ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾[٢]، قال السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحا، يؤثر فيه وينقص قدره فيضيق صدرك لذلك؟! أم عليك حسابهم، ومطالب بهدايتهم جبرًا؟»[٣].

واجب العلماء تجاه الطعن والاستهزاء:

كما سبق القول فإن طعن الأعداء في المقدسات إنما هو بسبب الضعف الذي تعاني منه الأمة، تماماً كالطعن الذي كان من كفار قريش في مكة يوم كان المسلمون مستضعفين، ولئن كنا قد قدمنا فيما سبق تصوراً لما يجب أن تسلكه الأمة كي تتغلب على ضعفها ومن ثم لا يتجاسر أحد على النيل من مقدساتها، فإنه لا بد من اتخاذ خطوات ما في مواجهة هذه الطعون تكون كفيلة بتقليل ضررها والحد من تكررها قدر الإمكان إذ القضاء عليها بالكلية غير ممكن إلا بتحقق التمكين، فدور العلماء المقترح هنا هو:

أولاً: ضرورة توحيد مواقف العلماء تجاه مثل هذه الأمور وضرورة صدور الهيئات المعنية عن رأي العلماء درءاً لأثر الشقاق، فيخرج العلماء للأمة بموقف موحد يبين لها ما يجب عليها فعله في ضوء كل أمر

(1)سورة المائدة آية ٦٧.

(2)سورة هود آية ١٢.

(3) تفسير السعدي .

مستجد، وفي هذا منع للبلبلة وانقسام ردود أفعال الأمة مما يضعف أثرها.

ثانياً: السعي لدى الحكام المسلمين لبذل ما في وسعهم من واقع العلاقات بين الدول للإسهام في العمل على إيقاف الإساءات، وعلى الداعية والعالم والمصلح أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح.

ثالثاً: تقدير الأمور بقدرها، إذ إن بعض هذه الطعون على شناعته قد يكون منحصراً في نطاق ضيق فيأتي رد الفعل ليتجاوز نطاقه بمراحل مما قد يشجع الأعداء في غير مكان على تكرار الفعل فتتسع الإساءة بدل أن تخمد.

رابعاً: بث روح الأمل في الأمة بدل روح اليأس وبيان أن أمثال هذه الطعون قد لحقت بالدعوة في مهدها الأول ثم كانت العاقبة للمتقين، بل إن بعض هذه الطعون مؤشر على قرب الفرج والنصر على الأعداء إن لازمنا أداء ما أوجب الله علينا، كما قد تكرر مع أسلافنا، لأن الله عز وجل يغار على حرماته أن تنتهك، لكنه ابتلاء واختبار منه سبحانه لنا ولاستقامتنا.

خامساً: توظيف هذه الطعون في الدعوة إلى الله بين صفوف الكفار الذين قد يحملهم الفضول على الرغبة في التعرف على هذا الدين الذي تدور حوله المعركة بين الطاعنين فيه والذابين عنه.

سادساً: توظيف هذه الطعون في الدعوة إلى الله بين صفوف المسلمين الشاردين عن الجماعة ممن ظلموا أنفسهم وحملهم ما في قلوبهم من

الإيمان ـ رغم ذلك ـ على أن هبوا لنصرة دينهم فيؤخذ بأيديهم إلى الطاعة والاستقامة.

سابعاً: الرد على هذه الطعون بالمثل وفق الضوابط الشرعية وذلك بذم الكفر وأهله وبيان عواره ونشر ذلك بين أظهر الطاعنين مع مراعاة المصالح والمفاسد، ويدل على مشروعية هذا الأمر قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لحسان: "اهجهم -أو هاجهم- وجبريل معك"[1]، فأمره بهجاء قريش لما هجوه عليه السلام، قال الحافظ: "في الحديث جواز سب المشرك جواباً عن سبه للمسلمين، ولا يعارض ذلك مطلق النهي عن سب المشركين لئلا يسبوا المسلمين لأنه محمول على البداءة به، لا على من أجاب منتصراً»[2].

أما المثقفون فعلى عاتقهم كذلك يقع عبء كبير ولعل مما يسعهم عمله ما يلي:

وهذه الأمور مجملة هنا قد يناسب بعضها قطاعاً منهم وبعضها قطاع آخر فمنها:

أولاً: نشر ما اتفق عليه العلماء بين الناس على نطاق واسع وتوعية الجماهير بضرورة الالتزام به وعدم الانسياق وراء ردود أفعال غير مدروسة قد تؤدي إلى إتلاف أرواح وأموال حرمها الله وهو ما قد يضر أكثر مما ينفع. والرجوع إلى أهل العلم الراسخين والمرجعيات المعتبرة من

---

(1) رواه البخاري من حديث البراء ، باب هجاء المشركين، ومسلم في باب فضائل حسان.

(2) فتح الباري ج ١٧ / ٣٤٤، شرح أول حديث في الباب المذكور.

هيئات وأفراد في مشاريعهم وقراراتهم الصادرة عن أنشطة لهم متعلقة بواقع طعن أو استهزاء.

ثانياً: تبصرة الناس بواقعهم وأن هذه الانتهاكات لحرمة الأمة هي بسبب تقصيرها في حمل الأمانة التي أوكلها الله بها، وأن التصدي لها لا يكون بالعواطف فحسب بل بالعودة الصادقة إلى الله لاستئناف حياة إسلامية سليمة .

ثالثاً: الاتصال بوسائل الإعلام التي تروج لهذه الانتهاكات وتوظيف حق الرد المكفول فيها لتزييف تلك الطعون وبيان حقيقتها وعرض دين الإسلام كما هو إظهاراً للحق وكبتاً للباطل، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

رابعاً: استخدام كافة الوسائل المتاحة من جرائد ومجلات ومواقع على الشبكة العنكبوتية للرد على الافتراءات وتجلية حقيقة دين الإسلام، كل بحسبه وفي مجال تخصصه وموقعه، وبلغته التي يحسن.

خامساً: القيام بحملات لجمع التوقيعات على بيانات إدانة لمثل هذه الطعون التي لا تتوافق مع الأديان أو الأعراف أو الأخلاق وإرسالها إلى مروجي هذه الطعون وحكوماتهم للضغط من أجل إزالتها والوعد بعدم تكرارها.

سادساً: رفع الدعاوى القضائية على الوسائل التي تقوم بنشر هذه الطعون في بلادها ومحاولة إلزامها بنشر ما يبين كذب هذه الطعون والمطالبة بتعويضات باهظة ـ ينظر في الجهة التي سيُطالب بها من أجلها ـ لتكون رادعاً لغيرها من الوسائل .

سابعاً: القيام بحملة توعية بين الناس لمقاطعة وسائل الإعلام تلك إن كان لها وجود في بلاد المسلمين.

ثامناً: التواصل مع الشخصيات الفاعلة والمنصفة في بلاد الغرب التي ترفض مثل هذه الأعمال والتنسيق معها للقيام بحملات مضادة لبيان كذب وزيف هذه الطعون .

وبعد فما سبق كان محاولة لاستعراض أهم التحديات التي تواجه الأمة في العصر الحديث مما له أكبر الأثر على وجودها كأمة لها استقلاليتها وخصوصيتها سواء في حاضرها أو مستقبلها، وليس معنى الاقتصار على ما ذكر أن باقي التحديات ليست على نفس الدرجة من الأهمية، بل إن منها ما يحتاج إلى ندوة خاصة به لمناقشة آثاره وسبل مواجهته كالغزو العسكري الذي تتعرض له الأمة في مناطق عدة من العالم وهو الأمر الذي يجب أن يكون للعلماء دور حاضر وقائد فيه، وكذلك ما امتلأت به حياة المسلمين من منكرات ومخالفات شرعية هي من أكبر الأسباب المؤدية لما تعاني منه الأمة من ذل وقهر وتسلط الأعداء، إلى غير ذلك من التحديات .

و كذلك كان ما سبق محاولة لرسم تصور عملي لبعض آليات مواجهة التحديات المذكورة لا سيما من قبل علماء الأمة الذين هم حصنها الحصين وصمام الأمان بالنسبة لها، فالحسن ما رأوه حسناً، ويبقى أن ما في وسع المسلمين كثير، وكل واحد أدرى بموقعه وأعرف بما يمكنه تقديمه، والمهم أن يحمل الهم، وأن يراجع أهل الفضل والنظر، وأن يبذل ما في وسعه، والله يبارك في الجهود.

و الله المرجو أن يلهمهم الرشد والسداد ليأخذوا بأيدي الأمة إلى ما فيه صلاحها، ثم من ورائهم خيار مثقفي الأمة الذين يحملون همومها وآلامها، وهده الآليات كلها محل اجتهاد ونظر وقابلة للنقاش والتصويب والإضافة والحذف لاستخلاص الأفضل والأنسب في الوقت الراهن.

و لا يفوتنا قبل الختام أن نؤكد على حقيقة يجب أن لا تغيب عن الأذهان وهي أن مواجهة التحديات الطارئة لا يمكن بحال أن تكون لوحدها هي السبيل للرجوع بالأمة إلى سابق عهدها من العزة والتمكين، بل إن السبيل قد حددها النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: «حتى ترجعوا إلى دينكم» أي بكل شرائعه وأحكامه كما قال عز من قائل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾(١). قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين به المصدّقين برسوله: أنْ يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك»(٢).

هذا والله أعلم وأحكم، وإياه أسأل أن يبرم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم إبرام رشد، يعز به وليه، ويذل به أهل محادته ومعاندته، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(1) سورة البقرة آية ٢٠٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١/ ٥٦٥.

خلاصة

١. الواقع المرير الذي تعيشه الأمة في هذا العصر يستدعي تضافر كل الجهود المخلصة والمنظمة لرفع ما حل بها من ضعف وهوان والعودة بها إلى سابق عزها ومجدها.

٢. السبب الرئيس فيما حل بالأمة من نكبات وويلات هو بعدها عن المنهج الذي ارتضاه لها ربها عز وجل وهذا أمر ليس بخاضع للاجتهاد لأنه إخبار من لا ينطق عن الهوى.

٣. العلاج لحال الأمة قد وصفه طبيبها عليه السلام فليس خاضعاً للاجتهاد كذلك وطلب العلاج في غير ما وصفه مخالف للشرع والعقل والواقع وبعثرة للجهود والأوقات بلا طائل معتبر.

٤. الحرب التي يشنها الأعداء على الإسلام والمسلمين ليست وليدة اليوم وليست بالأمر المستغرب بل هي من سنن الله الكونية التي لا تتبدل ولا تتغير في تدافع الحق والباطل إلى قيام الساعة .

٥. تكالب الأعداء على الأمة سبب من أسباب زيادة ضعفها ووهنها لكنه أثر من آثار بعدها عن منهج ربها الذي هو السبب الحقيقي والرئيس لما هي فيه اليوم من ضعف، فمعالجة أسباب زيادة ضعفها وذلها لا يجب أن يلهينا عن معالجة السبب الحقيقي لهذا الضعف .

٦. الأمة تواجه اليوم نوعين من التكالب ونوعين من الأعداء، عدو خارجي يتكالب عليها بالعدة والعتاد وبث الشبه والشهوات في بلاد المسلمين،

وعدو داخلي رضي بموافقة العدو الخارجي ببث الشبه والشهوات، ولكل من العدوين ولكل من التداعيين وسائل مواجهة تليق بحاله، ولهما من التكامل ما يتطلب تكامل المسلمين المصلحين الحادبين على الأمة في الداخل والخارج.

٧. التصدي لتكالب الأعداء على الأمة بما يبثونه من شبهات وشهوات واجب على كل أفراد الأمة ولو بالقلب بإنكار ما جاؤوا به وليس وراء ذلك حبة من خردل من إيمان، لكن العبء الأكبر في هذه المواجهة إنما هو على عاتق العلماء العاملين والحكام الصادقين والمثقفين الغيورين على هذه الأمة.

٨. التحديات الرئيسة التي تواجهها الأمة تتمثل في: الجهل بشرع ربها وعدم الالتزام به، والفرقة والاختلاف بين المسلمين، وتكالب الأعداء على الأمة.

٩. مواجهة هذه التحديات لا يتم إلا بعمل دؤوب يتجاوز نطاق الفردية فلابد مع العمل الفردي من تضافر الجهود وتعاون الحادبين، وتداعي المصلحين، ولابد من عمل مؤسسي منظم فالفردية وإن أدت شيئاً في المواجهة إلا أن الخلاص العام للأمة لا يمكن أن يكون عبر جهود مبعثرة هنا وهناك لا يجمعها تصور واضح ومحدد.

هذا وقد كان في ثنايا البحث تفصيل لبعض الخطوات المقترحة في مواجهة هذه التحديات، فالله المسؤول أن يبرم لهذه الأمة أمر رشد، وأن يبدلها من بعد ضعفها وذلها قوة وعزاً، وهو الأمر الذي لا نشك في أنه

سيكون لإخبار الصادق المصدوق، فجعلنا الله سبحانه وتعالى ممن يعملون لتحقق هذا الهدف وممن ينعمون بالعيش في ظله.

هذا والله أعلى وأعلم ورد العلم إليه أسلم وصل اللهم على عبدك ونبيك محمد وعلى آله وصحبه وسلم.